المهرج

قصص قصيرة

obeikandl.com

مكسيم جوركي

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

obeikandl.com

المفاتيح

كان ثلاثتنا: (زيومكا كارجوزا) و (أنا) و (ميشكا) عمالقة بلحى طويلة وعيون واسعة لها زرقة الماء، نبتسم دائماً بثغور فرحة، ويخيل لمن يرانا أننا نترنح من الخمر أبدا. وكنا نأوي إلى بناء قديم خارج المدينة، يكاد من فرط قدمه أن ينقض، ولا يعرف غير الله لم سمي بمصنع الزجاج، ولعل ذلك لعدم وجود لوح زجاجي سليم به. وكنا نتقبل أي شيء دون أن يكون لنا شيء من الخيار، وكنا نكنس ساحات البيوت وننظف الغبار، وننبش المقابر وأكوام القمامة، ونهدم البيوت القديمة، ونقطع الأسوار. وقد حاولنا مرة أن نبني زريبة للعمالقة، إلا أننا فشلنا في ذلك. وكان زيومكا يسعى دائماً للقيام بواجبه، ويتشكك في معرفتنا ببناء زريبة للعمالقة. ولهذا فقد أحظر بنفسه ظهر يوم وكنا في غفوة كل المسامير وقطعتين من الخشب ومنشارا، وكان ذلك كله لصاحب عمل كنا نعمل عنده، وقد طردنا من أجل تلك الفعلة. ولما كنا لا نملك شيئاً يمكن سلبه منا لم يطالبنا بتعويض عن الأضرار التي لحقته بسببنا؛ وكنا في كفاف من العيش؛ وكنا غير راضين بما قسم لنا - وهو أمر

openkandi.com

طبيعي في مثل هذه الحالة، وتطور هذا الشعور بفعل الزمن فأصبح كراهية لكل ما يحيط بنا. وجرنا ذلك إلى أعمال تهديدية توقعنا تحت طائلة قانون العقوبات. والواقع إننا عشنا في ألم. غير مبالين بالحياة، مرغمين على البحث عن عمل وليس لنا من مظهر الحياة المادي سوى تجاوب ضعيف.

وكنا قد تقابلنا في ملجأ لمن لا مأوى لهم قبل أربعة عشر يوماً من الحادث الذي سأقصه عليك لأنه شائق في نظري؛ وصرنا بعد يومين أو ثلاثة من تعارفنا أصدقاء نسير معاً إلى كل مكان، ويفضي كل منا لصاحبيه بأمله وأغراضه. ويشاطر بعضنا بعضاً كل شيء؛

وبالاختصار عقدنا اتفاقا لا نص له على أن نكافح سواسية مدافعين ومهاجمين الحياة التي ناصبتنا العداء

وفي النهار كنا نبحث بجد عن عمل، في قطع الأحجار، أو الهدم أو الحفر أو النقل، وعندما تهيأ لنا فرصة مثل هذه كنا نعمل بجد ونشاط.

ولما كان لكل منا غرض أسمى من وضع مواسير المجاري أو تنظيفها - وهو من اشق الأعمال - فقد سئمنا العمل فيها بعد يومين. ثم أخذ زيومكا يتشكك في ضرورة الحياة.

obeikandi.com

ستصير هذه مجاري لأي شيء؟ للقاذورات؟ أليس في وسع الإنسان أن يلقي بها أمام داره؟ كلا هذا لا يصح فأنها تثير رائحة كريهة. هكذا! القاذورات تثير رائحة كريهة. أعمال عظيمة من أجل أشياء تافهة! فلو أن أنساناً قذف مثلاً بخيارة مخللة، غير كبيرة الحجم، فماذا تبعث هذه من رائحة؟ إنها تبقى يوماً... ثم تختفي... - تتعفن! لا، ولكن إذا قذف بجثة آدمي إلى موضع فيه الشمس فإنها تتعفن حقاً.، إلا أن ذلك عمل منكر!)

مثل هذه الأحاديث كانت تفت في عضدنا وتقلل رغبتنا في العمل. وكان ذلك يفيدنا كل الفائدة عندما نعمل بأجرٍ يومي في الأعمال الجزئية. فقد كنا نتقاضى أجرنا دائماً قبل أن نتمم ما عهد إلينا به من عمل. وذهبنا مرة إلى مقاول وطلبنا منه أن نعمل في عمل، إلا أنه طردنا وهددنا أن سوف يضطرنا بمعونة الشرطة إلى إتمام العمل الذي أنقدنا أجرنا عليه من قبل. وكنا نجيبه بأنه لا طاقة لنا على العمل وبطوننا خاوية. وتشبثنا مطالبين بالعمل. وكنا نحصل عليه في أغلب الأحيان.

كان ذلك خطأ منا، ولكن لا نكران في أنه كان مفيدا لنا. ولم يكن في وسعنا أن نصلح شيئاً من نظام الحياة الذي فسد، حتى أصبح القيام بعمل والانتفاع به ضدين.

وكان زيومكا في كل مرة يتولى المفاوضة مع أصحاب العمل، وكان يقوم بها بمهارة ولباقة، وكان يبرهن على صحة مطالبه بهدوء الرجل المهدود القوي الذي يرزح تحت عبء الأعمال التي لا طاقة له بها.

وكان ميشكا يقف صامتا إلى جانبه، ويحمله بعينيه ويبتسم ابتسامة الرضا والسرور، كما لو أنه كان في نيته أن يقول شيئاً ولكن خار عزمه. وكان يندر أن يتحدث، فإذا ما ثمل أخذ في الكلام كمن يلقي خطاباً. ثم ناداه مبتسماً:

(أخي!) وكانت شفتاه ترتجفان عجبا، وبقي صوته محتبسا في حلقه، وبدا يسعل ليستر خجله، ثم أمسك رقبته بيده وقال زيومكا، ولم يطق صبراً: (ما بالك؟)

فقال له: (أخي! إننا نعيش كالكلاب، بل أتعس منها.. ولم ذلك؟ لا أحد يدري! ولكن لا بد من أن الله عز وجل أراد ذلك، فكل شيء يسير بإرادته. أليس كذلك يا أخي؟ نعم هو كذلك. ولذا أقول إن ما نلقاه نحن التعساء هو العدل. أليس

ذلك تفكيراً صحيحاً؟ وعلى ذلك أفلا يمكن أن تتحسن حالنا؟ يجب أن نرتضي حظنا صابرين... أليس كذلك؟)

ولكن زيومكا أجاب على أسئلة زميله المتعددة المثيرة للخواطر بكلمة مختصرة: (يا قليل العقل!)

فانكمش ميشكا وقد عرف خطأه، وابتسم خجلا وبرقت عيناه المنتفختان من الخمر وسكت. ثم قال فجأة: آه، لو أن لنا (خنزيراً).

وكنا ذات يوم نتسكع في السوق نبتغي عملاً، فاصدمنا بامرأة عجوز ضامرة قصيرة ذات وجه كثير التجاعيد؛ وكان رأسها يهتز فوق عنقها. وعلى أنفها منظار كبير محاط بإطار غليظ من الفضة، يتأرجح يمنة ويسرة فتعمل يد العجوز لتثبيته في موضعه. أخذت تحدق فينا النظر؛ وقد وجهنا إليها أنظارنا طامعين في حديثها.

وسألتنا: أليس لكم عمل؟ أتبحثون عن عمل؟

ولما أجابها زيومكا في احترام بالإيجاب، قالت: (حسناً! عندي حمام قديم أريد هدمه. كما أريد أن تنظف النافورة... فكم من الأجر تطلبون؟)

onekandil.com

فـرد عليهـا زيومكـا في احـترام أيضـاً قـائلاً: (يجـب أولاً يـا سـيدتي المحترمـة أن يـرى الإنسـان حجـم الحمـام، وكـذلك النـافورة، فلكل نـافورة شـكلها الخـاص، إذ منهـا مـا هـو عميـق جداً و. . .)

وطلبت منا العجوز أن نرى النافورة. ولم تمض ساعة حتى كنا نعمل مجدين بالمناشير والمعاول في هدم الحمام. فلما انتهينا من عملية الهدم هذه وتنظيف النافورة تقاضينا مبلغاً قدره خمسة روبلات وهو الأجر الذي اتفقنا عليه. وكان الحمام مقاماً في ركن مهجور من الحديقة، وعلى مقربة منه كوخ خشبي تظلله أغصان شجر الكرز. وقد رأينا ونحن نهدم بناء الحمام العجوز جالسة في ذلك الكوخ عاكفة على قراءة كتاب كبير وضعته على

ركبتيها. . . وكانت من وقت لآخر ترمينا بنظراتها الحادة، وكان الكتاب يهتز فوق ركبتيها فيلمع القفل الفضي للكتاب.

لـيس بـين الأعمـال أسـهل مـن التخريـب والهـدم. وقـد استفرغنا جهدنا وسط سحابة من الغبار. وكنا نعطس ونسعل ونمخط ونفرك أعيننا حين قد سقط الحمام وتناثرت أجزاؤه، فقد كان عتيقاً ناخراً كصاحبته.

onelkandil.com

(هيه يا شباب، فنجيبها: واحد، اثنان، ثلاثة، هوب!) هكذا كان زيومكا يصدر أوامره. وهكذا تساقطت كتل البناء الواحدة تلو الأخرى.

وتساءل ميشكا وهو مطرق الرأس مستنداً إلى الفأس مجففاً عرق جبينه: ما عساه يكون هذا الكتاب؟ أنه لكتاب ضخم! ولن يكون الإنجيل إذ هذا أضخم منه)

وسأله زيومكا مستفسراً: (وماذا يهمك من ذلك؟)

(يهمني؟ كلا! إنني أميل لاستماع من يقرأ الكتب... أعني الكتب الدينية. وكان في قريتنا جندي أسمه أفريكان يقرأ كثيراً في الإصحاح، وكذلك وكان وقع ذلك في أذني كالموسيقى - ما أجمل ذلك!)

وسأله زيومكا وهو يشعل لفافة التبغ: والآن؟)

- لاشيء. لقد كان جميلاً، على رغم أن الإنسان لا يفقهه. إنه لكلام جميل... وقد لا يسمع الإنسان كلاماً مثله في الشارع. نعم إن الإنسان لا يعرف له معنى، ولكنه يشعره بأن ذلك له صلة بالروح.

وهزئ زيومكا منه قائلاً: هذا ما لا أفهمه، إن الإنسان ليرى فيك من جديد غباء الحذاء القديم.

فأجـاب الأخـر قـائلاً: (إنني واثـق مـن أنـك تميـل إلى السباب)

(كيـف السـبيل إلى مخاطبـة مثـل هـذا الحمـار؟ إنـه لا يفقه شيئاً غير ذلك: هيا، أعمل معولك هنا - أنتبه... هوب)

وتقوض بناء الحمام شيئاً فشيئاً وكثرت الأنقاض، وقد أحيطت بغمامة من الغبار كست أوراق الأشجار القريبة

وبدأ ميشكا ثانية: هذا الكتاب محلى بالفضة)

ورفـع زيومكا رأسـه، وصـوب نظـره إلى الكـوخ. وقـال في اقتضاب:

- (هو كذلك على الغالب)

- (إنه لا شك الإنجيل)

- (ليكن ذلك. وماذا يهمك من أمره؟)

- (لا شيء!)

- (لا شـيء هـذه مـلء جيـوبي. ولكـن إذا كنـت تريـد أن تستمع إلى ما في الإنجيل فاذهب إلى العجوز وقل لها: أقرئي لي يا سيدتي المحترمة شيئاً من الإنجيل، إنـه لا سبيل لنا غير ذلك؛ إننـا لا نـذهب إلى الكنيسـة لأن أبـداننا قـذرة وملابسـنا باليـة، إلا أن لنا روحاً كبقية الناس... هيا أذهب).

opelkandi.com

- (هل أذهب حقاً؟)

- (نعم، أذهب)

وقذف ميشكا بمعوله وأصلح ثيابه ومسح الأقذار عن وجهه بكمه، وقال زيومكا في نفسه وابتسامة السخرية على فمه: (ستركلك برجلها كأحقر دب) غير أنه تلهف على متابعة خطوات صاحبه بالنظر، وسار هذا بخطى ثقيلة وابتسامة الخجل والهدوء مطبوعة على وجهه، ورفعت العجوز رأسها وصوبت نظرها إلى ذلك المتسكع القادم إليها، وكانت الشمس تضيء زجاج منظارها وإطاره الفضي فيومض

ولم تركله برجلها برغم أن زيومكا تنبأ بذلك، وكان حفيف الشجر يحول دون سماع ما تحدث به ميشكا إلى صاحبة المنزل، ولكنا رأيناه يخر فجأة أمام قدميها ويجلس على الأرض حتى يكاد أنفه يمس الكتاب، وكان وجهه يدل على الهدوء والرزانة، وقد رأيناه وهو يحاول ما استطاع أن ينفخ في لحيته ليبعد عنه الغبار، وأخيراً استقر في مجلسه ومد عنقه ووجه نظره إلى يد العجوز التي أخذت تقلب صفحات الكتاب صفحة صفحة.

(أنظر إليه فهو كالكلب غير المهذب! له الآن أن يستريح. فهل نذهب نحن كذلك؟ وماذا نعمل هنا وحدنا، وهو يجلس هادئاً بينما نحن نعمل من أجله وننهك قوانا. هيا، سر إلى الأمام).

وبعد دقيقتين جلسنا إلى جواره واحدا عن يمينه والآخر عن يساره، ولم تنبس العجوز بكلمة ساعة قدومنا، ولكنها كانت تحدق فينا وتقلب صفحات الكتاب كمن يبحث عن شيء بعينه، وكانت السماء صافية تشيع السرور في النفس، وكان النسيم العليل يهب من وقت لآخر مداعباً أوراق الشجر، وانساب من هذا وذاك سحر إلى قلوبنا التي كانت تتهيأ للمحبة والسلام، وبدأ يستيقظ فينا الإحساس بأشياء غامضة مجهولة إلا أنها قريبة منا، وأخذت أرواحنا تتحرر من الأدناس

(بولص، خادم المسيح)

بهذا رن صوت العجوز، وكانت ترتعش وقد هدها الكبر، غير أنها كانت خاشعة، ورسم مشيكا الصليب، وأخذ

زيومكا يتحرك من جنب إلى جنب ليجد مكاناً في الأرض مريحاً، وكانت العجوز ترمقه بعينيها دون أن تمسك عن القراءة.

وكان زيومكا أثناء ذلك، وهو الملحد الحقيقي، يتثاءب عالياً، فنظر إليه صديقه نظرة احتقار ثم اطرق برأسه؛ وحدقت العجوز بنظرها في زيومكا دون أن تمسك عن القراءة، فخجل من ذلك ومسح أنفه وأدار عينيه ليرى نتيجة تثاؤبه فلم تكن إلا تأوهاً خاشعاً.

ومضت دقائق هادئة إذ كان لصوت القارئة المرتل أثر في الطمأنينة:

(إن غضب الرب ينزل من السماء على كل غير رباني.. و..) وصرخت القارئة فجأة في وجه زيومكا: (أتريد...؟)

فأجاب في استكانة: (أنا... أنا... لاشيء! تابعي القراءة؛ إنني أستمع)

فسألته العجوز غضبى: (لماذا تلمس القفل بيديك القذرتين؟)

- (إنه ليهمني... إن صنعه جميل جداً... إنني أفهمه، كنت قبلاً صانع مفاتيح، وأردت أن أجسه...)

وقالت العجوز: (انتبهوا، ماذا قرأت لكم؟)

وقال زيومكا: (إنني أستطيع أن أعيده... إنني أفهم)

وقالت العجوز: والآن؟

- (لقد كنت ترتلين تعاليم الدين، وتذكرين عدم الإيمان بالرب. المسألة في غاية البساطة، فكل شيء من ذلك حقيقي. لقد كان ذلك يحز في قلبي.)

ونظرت العجوز إلينا وهزت رأسها وقالت:

(إنكم مفقودون... كالحجارة... ارجعوا ثانية إلى عملكم)

وقال ميشكا وعلى فمه ابتسامة المعترف بذنبه: (يظهر إنها غضبى)

وحك زيومكا رأسه وتثاءب والتفت إلى العجوز دون أن يراها وسار في طريقه وأطرق مفكراً: (إن قفل الكتاب من الفضة) وسرت في وجهه قشعريرة

وقضينا الليل في الحديقة إلى جانب أنقاض الحمام الذي هدمناه عن آخره في ذلك اليوم. وفي ظهر اليوم التالي أتممنا تنظيف النافورة، وقد ازدادت قذارتنا وتبللنا بالماء، وانتظرنا أمام باب المنزل في انتظار أجرنا، وكنا نتحدث عن

openelkandil.com

غذاء وعشاء دسمين نتناولهما قريباً؛ ولم يكن لواحد منا أي رغبة في الحديث عن شيء غير ذلك.

وفرغ صبر زيومكا وقال بصوت أجش: والآن أين استقرت يا ترى هذه الغول الشمطاء؟ لقد هلكت!

وقال ميشكا وقد هز رأسه معاتباً صديقه:

(لقد بدأ يسب من جديد. ولماذا يسب يا ترى؟ هذه العجوز امرأة طيبة تخاف الله، وهو يسبها - هذا هو خلق الرجال!)

وابتسم زيومكا وقال له إنه شديد الحساسية نحو ذلك الطائر الشارد، تلك العجوز... هذه...

وقضى ظهور العجوز على هذا الحديث الطريف. وتقدمت إلينا وأخرجت النقود وقالت في احتقار: (هاهي ذي نقودكم فخذوها وارحلوا من هنا. كنت أريد أن أعطيكم أخشاب الحمام فتقطعوها قطعا صغيرة، ولكنكم لستم أهلا لذلك)

وأخذنا نقودنا صامتين وذهبنا ولم نحظ بشرف تقطيع أخشاب الحمام إلى قطع صغيرة للوقود

obeikandi.com

وقال زيومكا وقد خرجنا من باب الحديقة: أيها البشع العتيق أنظر إلى هذه! ألا أستحقها يا قبيح الوجه؟ الآن يمكنك أن تسبح باسم ذلك الكتاب.

وأدخل يمينه في جيبه وأخرجها بقطعتين من المعدن اللامع وأرانا إياهما كمن كتب له النصر

وجمد ميشكا في موقفه، واشرأب عنقه ليرى ما في يدي زيومكا. وسأله حائراً: (هل خلعت القفل؟)

- (هذا ما فعلته! إنه من الفضة الجيدة. ويمكن لأي إنسان أن يحتاج إليها. وهى تساوى على الأقل روبلا)

- (هيه، وما دمت قد فعلت ذلك فارمها بعيداً عني! يا للخجل!)

- (سأفعل ذلك)

وتابعنا السير في صمت. وقال ميشكا مفكراً في الأمر. تمت بمهارة، انتزعها ببساطة. ثم قال: (نعم لقد كان كتابا جميلا وستحقد العجوز علينا)

وقال زيومكا هازئاً: (إنها لن تسترجعنا مرة أخرى لتقدم لنا ثناءها)

- (وبكم تبيعها؟)

- (بتسعة أعشار الروبل - هذا أقل ثمن، لا أقل من ذلك فلسا. إنني أخسر فيها. أنظر لقد انقصف لي ظفر)

وقال ميشكا في خجل: (بعني إياها)

- (أإياك أبيعها؟ أتريد أن تجعل منها أزراراً لقميصك؟ أنظر! إنها تكفي لعمل زوج جميل من الأزرار - وهى تليق بك على ثيابك الخلقة)

ثم أخذ ميشكا يستعطفه: (كلا إنني جاد غير هازل. بعني إياها

- (اشترها، كم تدفع؟)

- (خذ ما تشاء، ما هو القدر الذي أحصل عليه من شركتي في العمل؟)

- (روبل واحد وعشرون كوبكا)

- (وكم تريد أن تأخذ فيها؟)

- (يا مغفل! ماذا تريد أن تفعل بها؟)

- (بعن إياها. أرجو ذلك)

وانتهت عملية البيع في النهاية، وأصبح القفل ملكا لميشكا بعد أن دفع تسعين كوبكا

openkanadi.com

ووقف ميشكا في مكانه وقلب القطعتين في يده وحدق فيهما. ونصحه زيومكا هازئاً بأن قال: (علقهما في انفك؟)

وأجاب ميشكا جادا: (ولم ذلك؟ إنني لا أريدهما. سأرجعهما إلى العجوز وأقول لها: هاك يا سيدتي العزيزة المحترمة. لقد أخذناهما سهوا معنا، فأرجعهما إلى ما كانا عليه

- ولكنك انتزعتهما فكيف إصلاحهما؟)

وسأله زيومكا وقد فتح فاه: (أتريد حقاً أن تحملهما إليها يا شيطان؟)

- (نعم ولم لا؟ أنظر إن مثل هذا الكتاب يجب أن يبقى كما هو. ولا يجوز للإنسان أن

ينزع منه قطعة. وسوف تغضب العجوز وتحزن... وسوف تموت عما قريب. هذا ما أردت. فانتظر لحظة يا أخي فسأعود سريعاً)

وقبل أن نتمكن من إيقافه اختفي وانعطف بخطوات سريعة وقال زيومكا في غضب وهو يفكر في أثر هذه الواقعة ونتائجها المحتملة: (ما أضعف هذا الرجل وما أكثر تغفيله؟)

ثم أخذ يؤكد لي في كل جملة خطأه

openkandi.com

ولكن الآن انتهى كل شئ. لقد أوقعنا في الشرك. ولعله الآن جالس متكئ أمام العجوز. وقد لا يغيب عنها أن تستنجد بالشرطة)

(هذا مثل مما يتوقعه الإنسان من مصاحبة هذا الوغد. إنه حقا يدخل الشخص إلى السجن من أجل شئ تافه. هذا الكلب! هل رأيت رجلاً له مثل هذه النفس الدنيئة، ينبغي أن يُلقي بأصدقائه إلى التهلكة، يا إلهي! أهذا هو جيل اليوم؟ هيا بنا، لم هذا الانتظار؟ أتريد أن تبقى هنا؟ انتظر إن شئت، ليخطفك عفريت من الجن أنت وكل الأوغاد من أمثالك. ذلك الوغد! ألا تريد أن تذهب معى؟ هيا)

ووكزني زيومكا في جانبي وسبني ومضى لسبيله

وكنت أريد أن أعرف ماذا جرى لميشكا عند صاحبة آخر عمل قمنا به. فذهب ثانية إلى ذلك المنزل، وكنت أعتقد أن لا خطر في ذلك، وأن السوء لا يمسني من جراء هذا. ولم يخب ظني، ووصلت المنزل وأخذت أنظر من خلال الحواجز وقد رأيت وسمعت ما يلي:

كانت العجوز جالسة على سلم المنزل ممسكة بقطعتي القفل الفضي بيدها وهى تنظر إلى ميشكا من خلال منظارها

بدقـة كمـا لـو كانـت تريـد أن تتغلغـل في صـميمه. وكان لعينيهـا الحـادتين بريـق قـوى. وقـد ارتسـمت على طـرف فمهـا ابتسـامة خفيفة رخوة تحاول إخفاءها: هي ابتسامة المغفرة.

وتبين من خلف العجوز ثلاثة رؤوس: امرأتان إحداهما شديدة حمرة الوجه وعلى رأسها منديل زاهي الألوان، والثانية عوراء، وقد وقفت خلف رجل عريض المنكبين وإمارات وجهه تدل على أنه يريد أن يقول:

(أسرع من هنا يا صديقي! أسرع بقدر ما يمكن)

وكان ميشكا يتحدث في ارتباك:

(لقد كان كتاباً عظيما!! إنهما نذلان! أما أنا فقد كنت أذكر ربى. هذا هو الحق. وهذا ما يجب قوله. إننا تعساء ورجال سوء أنذال - ثم كنت أعود فأفكر في المرأة العجوز الطاعنة في السن. ولربما كان سرورها الوحيد في كتابها هذا - ذلك ما ظننته. وأردت أن أهيء للعجوز المتدينة سروراً وأن أرد إليها أشياءها: وقد اكتسبنا بحمد الله شيئاً نقتات به. فالوداع يا أخوتي. إنني أريد الذهاب الآن)

واستوقفته العجوز وقالت له: (انتظر! هل عرفت ما قرأته لك البارحة؟)

(أنا؟ أَنَّى لي ذلك؟ إنني استمعت إليك ولكن أي استماع؟ فهل لآذاننا قدرة على استماع كلام الرب؟ إننا لا نفهم مثل ذلك.)

وقالت العجوز: (أهكذا؟ ألا تنتظر لحظة أخرى؟) وتململ ميشكا وأخذ كالدب يضرب الأرض برجليه. فان مثل هذا الحديث لا طاقة له به.

- (هل لي أن أقرأ لك شيئاً قليلاً؟)

- (..... ولكن صديقَّي ينتظران.)

- (دعهما ينتظران، إنك رجل طيب. دعهما يسيران حيث شاءا.) وقال ميشكا بصوت خافت: (حسناً.)

- (إنك لن تسير معهما بعد الآن؟ أليس كذلك؟)

- (لا.)

- (هذا هو الصواب. إنك طفل كبير على رغم مالك من لحية تنزل إلى وسطك! هل أنت متزوج)

- (بل أعزب. إن زوجتي توفيت.)

- (ولم تشرب الخمر؟ أنك تشرب طبعاً؟)

- (نعم.)

- (ولماذا؟)

opeikandi.com

قال ميشكا متضجراً: (ولماذا أشرب الخمر؟ لتغفيلي. إنني مغفل ولهذا أشرب. ولو كان للإنسان عقل لم جرؤ على تحطيم نفسه بيده.)

- (إنك على حق.) فاعمل على أن تكون عاقلاً. حسن من سيرتك وأصلح من أمورك.

اذهب إلى الكنيسة واستمع إلى كلام الرب ففيه كل الحكمة.)

وتأوه ميشكا وقال: (سأفعل)

- (هل لي أن أقرأ لك شيئاً؟)

- (نعم، تفضلي)

وأتت العجوز بالإنجيل، وقلبت صفحاته، وبدأ صوتها يدوي، ورمى ميشكا برأسه إلى الوراء، وحك بيده ذراعه اليسرى (وهل تظن أيها الإنسان أن في وسعك التهرب من حكم الرب؟)

وقاطعها ميشكا وكأنه يجهش بالبكاء: (سيدتي المحترمة، دعيني أذهب، أرجو ذلك محبة في الله، سآتي مرة أخرى عن طيب خاطر واستمع. أما الآن فأني جائع جدا. إننا لم نتبلغ منذ أمس.

obeikandl.com

ودقت العجوز صدرها، وقالت: (أذهب! ابتعد!) ورن صوتها المزعج في الفضاء، واندفع ميشكا مسرعا نحو الباب بعد أن قال لها:

(أشكرك شكرا جزيلاً أيضا)

وتمتمت العجوز تقول: أرواح مغلقة! قلوب غلف كالحجارة!

وبعد نصف ساعة جلسنا في المطعم، وشربنا الشاي وأكلنا الخبز الأبيض، وقال ميشكا وهو يبتسم إليّ بعينه التي تشبه عيون الأطفال سذاجة وفرحا: (كنت أشعر كأن حمى قد انسابت في جسمي، وقد وقفت هنالك وفكرت في القول: أي ربى لم جئت إلى هنا؟ إنه العذاب! وبدأت هي الحديث: هل هؤلاء آدميون! إننا نريد أن نكون شرفاء معهم ونهيئ لهم ما توحي به ضمائرنا، إلا أنهم يفكرون في غير ذلك: يفكرون في متاعهم. فقلت لها: يا سيدتي المحترمة، هذا هو قفلك أرده إليك ولا تغضبي... ولكنها قالت: انتظر، ابق هنا، أذكر لي أولاً لم أحضرته؟ وبدأت تخزني بكلماتها، ولقد سئمت كثرة أسئلتها... هذه هي الحقيقة)

وتابع الابتسام الهادئ المريح

openkandil.com

واهتاج زيومكا وقال له جادا:

(أولى لـك يـا صـديقي أن تمـوت! وإلا التهمـك في الغـد الذباب من فـرط سخـف أفكارك)

- (إنك تتحـدث بغبـاء دائمـاً. تعـال، نـريد أن نشـرب كأسـاً على المسألة الستار). وشربنا كأساً

على نهاية هذه الحـادثة العجيبة.

obeikandl.com

السلطان وولده...

اعتمد (التتاري) الأعمى إلى جدع الشجرة من أشجار التوت، وراح يقص واحدة من تلك الأساطير التي سطرتها الذكريات في عقله عن شبه الجزيرة القوم... والتف حوله حشد من (التتار) في بردهم الموشاة المفوفة، ومطارفهم الزاهية المخلبة... وقرت فوق رؤوسهم قلانس مطرزة بالذهب...

وقد جلسوا على أحجار دارسة، وأطلال بالية، كانت حيناً قائمة في جدران قصر فاخر لسلطان من السلاطين القدماء.

كانت الشمس تنحدر نحو مستقرها في البحر، فتبعث أشعتها الجاهدة الكليلة وقد راحت تخترق ستور الظلام... وتبعث بحلكته، وتميس بين أوراق الطحلب فتخلع عليها روعة وبهاء، وتسيطر على الأطلال فتبعث فيها شيئاً من الرهبة والوراء...

وبرحت الريح رخاء تداعب غصون الأشجار، وتصاول الأوراق فيسمع لها حفيف وزفيف... وكأن صوت الرجل

ينبعث واهناً فيه بعض من الاختلاج والاضطراب؛ أما وجهه فكالصخر جامد لا ينم تجعده على شيء سوى الراحة والهدوء. وانسابت الألفاظ من لسانه حيناً، ومن قلبه أحياناً تعيد لسامعيه صورة جلية للأيام الخالية العامرة بالهناء.

ولم يلبث أن قال في صوت جليل، وجرس ندى:

(زعموا انه عاش في شبه الجزيرة القزم سلطان يقال له... (مسيلمة الأسراب) وكان له ولد يدعى (توليق الجلي).

كان هذا السلطان كهلا، يبد أن قصره ضم كثيراً من النساء اللواتي عشقن السلطان الكهل... فما زال جسده يمور قوة ونشاطاً، ولا زالت نفسه تمور مرحاً وشباباً... وما برحت النساء يعشقن ذا القوة والبأس.! إذ يقال أن الجمال يكمن في ثنايا القوة... لا تحت الأظافر الناعمة والوجنات الأسيلة المخضبة...

كن جميعاً يعشقن السلطان، ولكن السلطان ينصرف عنهن إلى ظبية سباها في حرب له مع (القوزاق) عند مروج النهر (الدنيبر)... وكان يخص هذه الفتاة بجل حبه وعطفه وحنانه وينفر عن نسائه وجواريه وقد نيفن على الثلثمائة من كل فج وبلد. نسوة منهن العذراء والخود والبضة، والعطبول والغيداء

والغانيـة والـرقراقـة إلى غير ذلـك... كانـت كل منهن على جمـال رائع كالزهور، وقد تفتحت أكمامها في صبيحة يوم اضحيان من أيام الربيع...

لم يبخل السلطان عليهن بمال... بل كان ينفق عليهن بسـعة ويجلـب لهـن مـا يـوددن... أتـى لهـن بـالخمر الفـاخرة... وبمـا لـذ وطـاب مـن طعـام وشـراب. وكـان يـأذن لهـن بـالرقص واللهـو كما يحلـو لهن. ولكن إيثاره للفتـاة القوزاقيـة بحبه كان ينغص عيشهن بعض التنغيص...

كثيراً مـا كان يـدعو الفتـاة القوزاقيـة إلى جناحـه حيث يشـرف على البحـر المسيطر إلى الأفق... حيث أعـد لها كل ما تطمح إليه نفس امرأة ويهفو نحوه فؤادها كي نلحقها السعادة في الحيـاة... الحلـوة والفاكهـة والشـفوف والغلائـل... والقلائـد مـن ذهـب، والأقـراط مـن شـذور، والوشـائح مـن زمـرد... وثمـت الطيور المعتدلة بأغاريد عذبة...

هـذا غير ما ميز بـه السـلطان من لطـف المعشر ودماثة وفتنتـه... في هـذا الفـردوس يقـيم السـلطان أيامـاً وليـالي يمتـع نفسـه بهـذا النعـيم ويتـذوق الراحـة والسـعادة وهـي تسـعى إليـه بعـد العنـاء الـذي يلقـاه مـن أعبـاء الحكـم... يقضـي أيامـه وقلبـه

آمن على ولده... وقدرته في أن ينهض بعظمة السلطان إبان غيبته... فهو يعلم كيف ينسل ولده إلى مروج الروس كالذئب فيغزوها ويغير عليها... ثم يعود والنصر يعقد لواءه على رأسه... فيكللها بآيات المجد والفخار... يعود مثقلا بالغنائم والأسلاب... والسبايا الفاتنة... يعود بعد أن يخلف الذعر والاضطراب... وفلول الأعداء ملوثة بالدماء والهزيمة... وحدث مرة أن عاد (توليق) من إحدى غزواته للروس فائزاً مضفراً... فأقام حفلا دعا إليه الأمراء وعظماء الدولة ابتهاجاً بالنصر المبين... وعقدت المباريات ومدت موائد الطعام... وراح القوم يقذفون نبالهم على أعين الأسرى ليعرف من هم أشد الجمع ساعداً؛ وأصوب رمياً... وعادوا إلى الشراب ينهالون حتى أترعوا وهو بين ذاك وذاك يمجدون هذا الفوز والنصر الذي أحرزه بطلهم العظيم (توليق الجلي)... ويشيدون بالخوف والهلع وقد خلفهما يفخران في عظام أعدائه أما السلطان فكان سروره بفوز ولده لا يعادله سرور... وكان يعتقد أنه إذا ما انتقل إلى السماء سيستوي على العرش من بعده سلطان قوي مرهوب الجانب...

رغب أن يبدى لولده مبلغ حبه وإخلاصه له - على مرأى من شعبه ورعيته فهم والقدح في يده وقال:

(بني العزيز (توليق)... فتح من الله ونصر مبين... والنصر آية من آيات رسوله ونبيه...)

فارتفع صوت الحشد يترنم بأنشودة حماسية تمجد نصر النبي؛ ثم عاد سلطان فقال: (إن الله عظيم خبير... لقد جدد قوته ومضائي في ولدي الأروع... إني لأبصر بعيني الغائرتين عندما يغيب شعاع الشمس عنهما إلى الأبد، وعندما يدب الفناء إلى قلبي النابض وأقضي نحبي... أني سأحيا ثانية في نفس أخرى... في نفس ولدي... فسبحانك اللهم أنت الإله الأوحد الجبار... لقد رزقتني ولداً عظيما صلبا الساعد، ثابت الجأش رزين العقل... فاللهم إني اشهد بوحدانيتك وقدرتك، وأشهد أن محمد رسولك ونبيك.

أبني توليق... ماذا تبغي أن تقدم لك يد أبيك؟. اذكر ما تود، وسأمنحك إياه.)

وخفت صوت السلطان رويداً حينما أخذ (توليق الجلي) يتأهب لإعلان رغبته، وقد تألقت عيناه تألق الحر في

ضوء القمر... عيناه اللتان كأنهما عينا النسر وهو يحوم بقلة الجبل... قال أخيراً:

- مولاي وأبت... امنحني الفتاة القوزاقية...)

وصمت الوالد ليهدئ من روعه، ويسكن من نفسه المضطربة وفؤاده الجياش... وبعد برهة رفع صوته ثابتاً لا ينم عما يعتمل بنفسه: (... خذها... عندما يختتم الحفل).

شملت البهجة والمراح قلب (الجلي)... وتألقت عيناه النسريتان بدموع الفرح... وقال لوالده السلطان في حب وبر:

- أي والدي ومولاي... إني لأقدر مبلغ هديتك إياي... إني لأقدره حق قدره... إني ابنك بل قل عبدك المخلص لك... خذ دمي... قطرة في كل لحظة... سأموت أكثر من ميتة فداء لك... يا أبت ويا مولاي...)

فقال السلطان وقد طأطأ رأسه إلى الأرض - رأسه الذي طالما كلله بالنصر بآياته سنوات متتاليات - (إني لأرغب عن كل شيء)

آذنت الوليمة بالانتهاء، فهم السلطان وولده يسيران من القصر إلى دار الحريم...

openikandi.com

وكانت السماء تغشيها السحب، فطوت القمر النجوم في حجب مغيبة دام السير طويلا في صمت وسكون... وأخيراً قال السلطان (الأسراب):

- ستفنى حياتي يوما بعد يوم، وسيخفت قلبي في خفقانه حيناً بعد حين... وستخمد رويداً هذه الجذور المستعرة في جسدي... جذوة الحياة. لقد كان الضوء الذي يشع في حياتي، والدفء الذي يبعث لي بالحرارة هي تلك الفتاة (القوزاقية)... خبرني بني (توليق)... خبرني إن كنت حقاً في حاجة إليها... خذ مائة من حريمي... خذهن جميعاً... بدلاً منها...)

صمت (توليق الجلي)... فعاد السلطان المتيم يقول:

- لقد تقضت حياتي... ولن ألبث طويلاً فوق أديم هذه الأرض... فدعني أنعم بحب هذه الفتاة... إنها تعشقني... من ذا سيحبني بعد أن تنأى عني؟! يحبني... أنا يا من دبت في جسدي الشيخوخة... من؟ ليست واحدة منهم يا توليق...)

- ولكن (الجلي) لم ينبس ببنت شفة. (بالله... كيف يتردد لي نفس، وأنا أحسب أنك تعانقها... وأنها تقبلك؟... إذا كنا أمام المرأة يا توليق فلسنا والداً وولداً... ليت جروحي - وقد

onelkandil.com

تناثرت في جسدي - نكأت فسال دمي حاراً دافقاً منها... فهذا خير وأفضل من عيشي حتى هذه الليلة...)

انتهى بهما المطاف عند باب الحريم، فوقفا - وقد طأطأ كل منهما رأسه إلى الأرض - وشاع الصمت بينهما، وشملهما الظلام. وفي السماء راحت بعض السحب تطارد بعضها والريح تميل الأشجار عن يمين وعن شمال... وكأنها تترنم لها...

قال (توليق) في صوت هادئ رزين (يا أبت... لقد أحببتها) فقال السلطان (أعلم هذا... كما أني أعلم أنها لا تحبك)

- إن قلبي لينفطر حينما أفكر فيها...

- إني لأشد منك حباً لها...

وعاد الصمت يحلق فوقهما ويرين عليهما... فقال (الجلي) في صوت فيه ألم، وفيه عزاء:

- لقد أدركت الآن صدق الحكمة القائلة (المرأة خلقت لمتاعب الرجل) إن كانت حسناء

راحت تغري الآخرين ليتملقوها فتوقظ في زوجها آلام الغيرة والحسرة... وإن كانت قبيحة، فزوجها يعاني من قبحها ويعاني آلام الحسد ومرارة الحقد على غيره... وإن لم تكن

بالجميلة ولا بالقبيحة راحت تتدلل على زوجها وتجعله يعتقد انه لم يقم بواجبه نحوها، فهي إذاً مصدر شقاء الرجل وتعاسته في هذه الحياة...)

فقال السلطان:

- ليست الحكمة دواء ناجعاً لشقاء القلب! يا بني

- يا أبت... يجب أن يشفق كل منا على الآخر

فرفع السلطان رأسه، وراح يحدق في ولده... فقال (توليق)

- يا أبت... دعنا... دعنا... نقتلها

فشك السلطان غير طويل ثم قال في تمتمة هادئة:

- إنك تحب ذاتك أكثر منها ومني؟!

- أجل... وأنت الآخر!

فقال السلطان بعد هنيهة في صوت شاع فيه الألم، وشاع فيه الحزن حتى لكأنه ارتد صبياً

- نعم، وأنا الآخر

- سوف نقتلها يا أبت

- لن ادعك تأخذها لنفسك... لن أدعك

obeikandi.com

- لا اقدر على مجالدة هذا طويلاً... إما أن تمزق قلبي أو تتركها لي. فلم يقل السلطان شيئاً... (أودعنا نلق بها من شاهق إلى البحر فتتردى...) فراح السلطان يردد هذه العبارة، وكأنه رجع الصوت الذي أطلقه ولده... وهو يهز رأسه في شرود وألم

- دعنا نلق بها من شاهق إلى البحر فتتردى...

دخلا الحريم، واتخذا وجهتيهما حيث مرقدها في فراش وثير وثمين... فوقفا ساهمين ينظران... وفي قلب كل منهما لهفة شوق... وألم

وانحدرت من مقلتي العجوز دمعات فسالت على وجنتيه... ثم تألقت على لحيته - وقد حاكت الفضة في لون شعرها - أما ولده فقد قام بعينين لامعتين... يصر على أسنانه ليخفى ذلك الهوى الذي يضطرب بين جوائحه... وقد راح يوقظ الفتاة (القوزاقية)...

أفاقت من نعاسها، تفتحت عيناها على وجنتيها الورديتين فكأنهما زهرتان من أزهار الأقحوان...

لم تبصر (التوليق) ولكنها مدت شفتيها الأرجوانيتين إلى السلطان

obeikandl.com

- قبلني، يا نسري العزيز. فقال السلطان في رقة:

- انهضي... ينبغي أن تأتي معنا...

ووقع طرفها على (الجلي)، والدمع يتألق محبوساً في عينيه... فما أسرع ما أدركت، وفهمت كل شيء... وقالت:

- هه... سآتي... سآتي... ليس لواحد منكما... أليس هذا مبتغاكما؟ وما قر عليه أمركما... للقلوب القاسية أن تقرر وعلى النفوس الضعيفة الواهنة أن تطيع... سآتي معكما...

وأنطلق ثلاثتهم شطر البحر في صمت وسكون... سلكوا في سبيلهم مسالك ضيقة، والريح لها صوت كعواء لبن آوى...

كانت الفتاة نحيلة الجسد، هيفاء القد... فما أسرع ما أدركها الوهن والعناء؛ ولكن كانت تعاني هذا في صمت، ولا يند عنها ما ينم عليه... وإذا لمح ابن السلطان ما اعتراها - وكان يسير إثرهما - أسر لها (أأنت خائفة؟!)

فلمعت عيناها، وأشارت إلى قدميها الداميتين... فقال وهو يمد ذراعيه إليها (دعيني أحملك!)

بيد أنها نفرت منه إلى عنق نسرها العجوز... فرفعها السلطان كالريشة حاملاً إياها... بينما راحت تثني أغصان الأشجار وتزيحها من أمام وجهه

وطال المسير... وأخيراً طرق أسماعهم صوت البحر وهو يهدر ويزمجر على مبعدة منهم... قال (توليق) موجهاً الحديث لأبيه (دعني أمض أمامك) وإلا حدثني نفسي الأمارة بالسوء أن أغمد خنجري في ظهرك)

- أمض... كما تشاء... إن الله سيغفر خطيئتك هذه... ويعفو عن إساءتك... فقد غفرت لك وعفوت عنك، إني لأعرف ما هو الحب يا بني!

وأخيراً أبصروا البحر يجثم تحتهم... كانت صخرتهم سامقة والظلام يسربلها... الظلام

الذي ليس له حد ولا نهاية؛ وراحت الأمواج تهدر بألحان الموت وهو يسري بين الصخور... وقد أخفاها الظلام يحفه القر والخوف.

قال السلطان بعد أن طبع على ثغرة الفتاة قبلة حارة (وداعاً). وقال (الجليّ) وهو يحني هامته لها (وداعاً...).

ألقت الفتاة بطرفها إلى ما تحتها حيث صخب الموج يردد ألحان الرهبة والجلال... فضمت يديها إلى صدرها وقالت في هلع وفرَقَ (اقذفا بي...)

فمد (توليق) يديه إليها وهو يئن ويتأوه... ولكن السلطان أخذها بين ساعديه وضمها إلى صدره وقبلها ثانية... ثم رفعهما فوق رأسه وألقى بها من الصخرة الشاهقة إلى واد سحيق... وارتفعت ألحان الموج... ألحان الموت... أجل رهبة وأشد فزعاً... ولم يسمع للفتاة صيحة وهي تلقى في الماء، أو تلقى حتفها على الصخور.

وتهالك السلطان على نشز وراح يحملق في الظلام يحاول بطرفه يخترق سجف الليل... سجف الغيب... وما برحت الأمواج تلطم الصخور في جنون وهوج... والريح تهب عاصفة في أعقاب موكب الموت... تعبث بلحية السلطان العجوز.

وجلس (توليق) جواره وقد دفن وجهه بين راحتيه، لا يتحرك ولا ينبس... وكأنه الصخر...

وتقضي الوقت والسحب يطارد بعضها بعضاً في جو السماء... شاعت الكآبة في ثنايا الظلام الرهيب المهيب، وكأنها

openkandi.com

تلك الأفكار التي راحت تطوف سوداء بخاطر ذلك العجوز... وهو جاثم على هامة الصخرة السامقة، ومن تحته البحر يهدر في وادٍ عميق... قال (توليق):

- (يا أبت... دعنا نمض...).

فنبس السلطان همساً، وكأنه يتوجس نبأة تسري في الهواء: (مهلاً) وعاد الوقت يمضي، والأمواج تتلاطم في عبث وجنون من تحتها والريح تصفر بين الأشجار كعواء ابن آوى... وعاد الابن يردد عبارته، فردد السلطان إجابته... وكان هذا التردد مراراً... كأن السلطان لا يبرح مكانه... وقد قبر فيه بهجته ومراحه... وأيامه الخوالي...

بيد أن لكل شيء نهاية، فلم يلبث السلطان أن قام نشيطاً، ولكن عابس الوجه، مقطب

الجبين وقال في صوت شاع فيه الجفاء:

- (هيا... بنا!)

وانطلقا... ولكن لم يلبث السلطان أن وقف قائلاً:

(لم أنطلق معك يا توليق... وإلى أين؟! لم أعيش بعدها؟! لم أعيش بعد أن ذهبت بعيداً عني... إني عجوز زلن

يهوني أحد ثانية... وإذا يهواك فليس ثمت خير في أن تعيش بهذا الكون!).

- (إنك ذو مال! وذو مجد يا أبت!).

- دعني ارتشف من ثغرها قبلة من قبلاتها نظير هذا المال)...

هذا المجد... يا بني. إن الناس جميعاً أموات في هذه الحياة والحي منهم الذي يعشق النساء... إن الحياة هباء بغير النساء،

يا بني... بارك الله فيك وفي ملكك... في حياتك وفي مماتك).

واتجه السلطان شطر البحر... فصاح (توليق) في هلع (أبت... أبت...). ولم ينطق بغير هذا... لأنك لا تجد الكلمات تلفظها لرجل يلقى حتفه باسماً راضياً... رجل آيس من حياته.

- (دعني أرحل...) فقال (توليق): (الله يا أبت...)

- (أن الله يعلم، وسيغفر لي) وبخطا سريعة مضى السلطان إلى نهاية الصخرة... وألقى بنفسه إلى أحضان الوادي... لم يسمع شيء فقد عصفت الريح إثر موكب الموت

obeikandi.com

وهو يمضي في جلال... وراحت الأمواج تدوم هديرها، وكأنها في عراك عنيف مع الصخور...

- وأخذ (توليق) ينظر ويطيل النظر إلى حيث الهوة السحيقة... إلى حيث الموت تحت قدميه... ثم ارتفع صوته جليلاً ورأسه إلى السماء: (يا إلهي... أسألك أن تلهم قلبي الصبر والسلوان... وأن تغفر لوالدي وتشمله برحمتك إنك غفور رحيم).

ثم مضى عائداً إلى قصره والصمت يحف به... حتى غيبه الليل في مطارفه...).

ommelkandl.com

المهرج

كانت النافذة المستديرة المرتفعة لزنزانتي تطل على فناء السجن. فإذا ما نظرت منها بعد أن أعتلي منضدة بجوار الحائط، أشاهد كل ما يحدث في هذا الفناء، وأراقب الحمام يبني عشه على الحافة العليا من النافذة، وأسمع هديله يتعالى فوق رأسي. وكان لدي من فسيح الوقت ما يسمح لي بالتعرف على نزلاء السجن كلما أطللت عليهم. وهكذا عرفت بوتش أكثر السجناء مرحا. كان رجلا وسطا، ضخم الجثة، أحمر الوجه، عريض الجبهة، براق العينين، يرتدي قلنسوة على مؤخرة رأسه، وقد التصقت أذناه على جانبي وجهه في شكل يلفت الأنظار. وكانت كل حركة من حركات جسمه تبين في جلاء أنه يمتلك روحا لا تبالي بالكآبة والحزن. لقد كان دائم المرح، كثير الضحك، محبوبا لدى رفاقه، يحوطونه فيمازحهم بمختلف الدعابات، ويضفي على أيامهم الباهتة، جوا من البهجة والسرور.

وفي ذات يوم خرج نوتش من زنزانته وقت النزهة وقد قيد ثلاثة جرذان بخيط، وجعل يعدو وراءها في الفناء وكأنه

يقود مركبة. فاندفعت الجرذان وقد أرعبها صياحه، اندفعت منطلقة في ذعر وجنون. وضج السجناء بالضحك يشاهدون ذلك الرجل البدين وهو يقود (مركبته).

كان نوتش يعتقد أنه ما خلق إلا ليجذب إليه الأنظار. وكان لا يعوقه عائق في سبيل ذلك. لقد استطاع ذات مرة أن يلصق شعر أحد السجناء بالغراء بحائط الفناء. كان السجين صبيا مستلقيا على الأرض بجوار الحائط وقد أخذته سنة من الكرى. وعندما جف الغراء، أيقظه نوتش فجأة، فهب الصبي من نومه مذعورا وقام على قدميه، ثم أمسك رأسه بيديه المتخاذلتين، وأخيرا سقط على الأرض يبكي. وقهقه السجناء من ذلك المنظر وابتسم نوتش في رضاء. ولكني شاهدته بعد أن ابتعد رفاقه يرفه عن الصبي ويطيب خاطره.

وكان هناك هر سمين نحاسي اللون، محبوب لدى السجناء، ومدلل منهم. ينتهزون وقت نزهتهماليومية فيداعبونه فترة طويلة، ويمر الهر من يد إلى أخرى، ثم يعدون وراءه، ويدعونه يخدش أيديهم وأرجلهم وهو يلاعبهم.

وكان الهر محط أنظارهم عندما يبدو في الفناء، فيوجهون إليه اهتمامهم وينسون نوتش ومهازله. وكان نوتش

إذا رأى ما رأى ذلك يجلس في ركن من الفناء يراقبهم وهم في غفلة عنه. وكنت أشاهده من نافذتي وأشعر بما يختلج في صدره من شعور وأحاسيس، فأعتقد أنه سيضطر أن عاجلا أو آجلا إلى قتل ذلك الحيوان عند أول فرصة سانحة تسنح له ولذلك كنت آسفا عليه. أن رغبة افنسان في أن يكون محط الأنظار غالبا ما تصبح وبالا عليه. فإنه لا يوجد ما يقتل الروح كتلك الرغبة في إدخال السرور على النفوس.

إن أتفه الحوادث عندما يكون المرء وحيدا، منفردا، حبيسا في سجن، لتسترعي انتباهه، فيوليها اهتمامه. لذلك كان من السهل أن تفهم سبب اهتمامي بما أتتبعه من حوادث من وراء نافذتي، وتلهفي إلى معرفة نتائجها.

وفي ذات يوم صفت سماؤه، اندفع السجناء إلى الفناء. فلاحظ نوتش دلوا به طلاء أخضر، كان قد تركه من يقومون بطلاء سقف السجن. فتوجه إليه، وحام حوله، ثم غمس إصبعه فيه، ثم صبغ شاربه بالطلاء. فأثار منظره ضحك السجناء. وعمد صبي من الزمرة إلى تقليده، فجعل يدهن شفته العليا. وإذا نوتش يغمس يده كلها بالطلاء ويصبغ وجه

الصبي، ثم جعل يرقص حوله. وضج السجناء بالضحك وهم يشجعون نوتش في صيحات تدل على رضائهم عما يفعله.

وفي ذات اللحظة أقبل الهر يتهادى في الفناء وقد رفع ذيله غير هياب ولا وجل، وسار بين أقدام الحشد المتزاحم حول نوتش والصبي الذي كان يحاول أن يزيل ما علق على وجهه من طلاء.

فصاح أحدهم - أيها الرفاق، أن ميشكا هنا!

وصاح آخر - آه أيها الأفاق الصغير!

ثم أمسكوا به، ومر في أيديهم الواحد تلو الآخر وهم يربتون على ظهره. .

وقال أحدهم - انظروا كم هو سمين!

- وكيف ينمو بسرعة!

- إنه يخدشني. يالك من شيطان صغير!

- أتركه. دعه يثب.

- سأحني ظهري له. اقفز يا ميشكا.

ونسوا نوتش، فوقف وحيدا يمسح الطلاء العالق على شاربه، وينظر إلى الهر يقفز على أكتاف زملائه. أخيرا قال في نبرات تشوبها التوسل والرجاء - أيها الرفاق، دعونا نطلي الهر.

فصاح واحد - ولكنه يموت.

فقال - من الطلاء!؟ هراء!

فقال رجل عريض الكتفين ذو لحية حمراء - يا لها من فكرة غريبة! إنك لشيطان حقا!

ولم ينتظر نوتش موافقتهم، بل حمل الهر بين يديه وسار به نحو الدلو وهو ينشد أنشودة مضحكة يصف فيها الهر. ويبتسم السجناء وابتعدوا يفسحون له طريقا. وشاهدته وقد أمسك بالهر من ذيله ثم غطسه في الدلو وهو يرقص وينشد. وقهقه الجميع، واهتزت الأجسام، وأطل النساء السجينات من جناحهن يبتسمن، وشاركهن الحراس الضحك. وأخيرا صاح ذو اللحية الحمراء - كفى أيها الرجل. فليأخذك الشيطان!

وازدادت حماسة نوتش بعد أن ألتف حوله رفاقه، وبعد أن أصبح محط أنظارهم ومبعث سرورهم. وغمر المكان ضحكات جنونية كانت الشمس تضحك وهي تشرف على البناء، والسماء الزرقاء تبتسم فوق السجناء، وحتى الحوائط القذرة فقد بدت وكأنها مهيجة بما كان يحدث في الفناء. وافترت ثغور النساء فتلألأت أسناهن تحت أشعة الشمس. وانزاح ذلك

الفتور القابض الذي كان يبعث في المكان جوا من السأم والملل، وأصبح مشرقا تترد في أنحائه صدى الضحكات.

وأخيرا وضع نوتش الهر على الأرض، ثم واصل مرحه وهو يلهث والعرق يتصبب منه، وشيئا فشيئا تلاشى الضحك بعد أن تعب السجناء منه، وأخيرا ران على المكان الصمت لا يقطعه إلا صوت نوتش وهو ينشد ويرقص، ومواء الهر وهو يزحف على الحشائش، ويتعثر في سيره بأقدام مرتعشة، ويقف بين الفينة والفينة كأنم التصق بالحشائش الخضراء التي اصبح من المتعذر تمييزه عنها.

وصاح ذو اللحية الحمراء - ما الذي فعلته أيها الوحش؟

وتطلعت إلى نوتش الأنظار شرزا. وصاح شاب وهو يشير إلى الهر - أنه يموء. فجعلوا يراقبونه في صمت.

وقال آخر - أيظل أخضر اللون بقية حياته؟

فأجاب رجل ممشوق القامة أشيب الشعر وقد اقترب من ميشكا - أنه جف في الشمس، وسيلتصق شعره، وسيموت.

وظل الهر يموء فيثير بذلك شفقة السجناء؛ وسأل الصبي قائلا - أيموت؟ إلا نستطيع أن نغسله؟ فلم يفه أحدهم

بكلمة. كان الهر قد ارتمى تحت أقدامهم عاجزا عن التحرك. وتهالك نوتش على الأرض وهو يقول (لقد غرقت عرقا!)، فلم يأبه أحد. وانحنى الصبي على الهر وأخذه بين ذراعيه. ولكنه سرعان ما أن لاقاه على الأرض وهو يقول - إنه ساخن جدا. ثم نظر إلى رفاقه وقال في حزن - مسكين يا ميشكا! لن يكون هناك ميشكا بعد اليوم. لماذا تودون قتل ذلك المسكين؟

فقال ذو اللحية الحمراء - لعله يتغلب على الموت.

وواصل الهر زحفه على الحشائش تراقبه أعين عشرون. ولم يبد على وجوه القوم أي أثر لابتسامه. كانوا جميعا صامتين واجمين في حزن كأنما اتصلت بهم آلام الهر وشعروا بما يشعر به من عذاب. وقال الصبي - لا أظنه يتغلب على الموت. هالك ميشكا الذي كنا نحبه. لماذا تعذبونه؟ أنه لمن الأفضل وضع حد لآلامه.

فقال السجين ذو الشعر الأحمر غاضبا - ومن الذي فعل ذلك؟ أنه ذلك المهرج. ذلك الشيطان. فقال نوتش محاولا أن يهدئ من ثائرتهم - ألم نشترك سوية في ذلك الفعل؟ ثم احتضن نفسه كأنه يشعر بالبرد.

فقال الصبي - كلنا! عظيم جدا! إنك وحدك الملوم.

فحذره نوتش قائلا - لا تهدر أيها الثور!

والتقط السجين الكهل الهر وجعل يتفحصه جيدا ثم اقترح قائلا - ألا نستطيع إزالة هذا الطلاء إذا ما جعلناه الهر يستحم في البترول؟

فقال نوتش وهو يتكلف الابتسام - خذه من ذيله واقذف به من فوق الحائط. أن ذلك أبسط حل للمشكلة. فزمجر ذو الشعر الأحمر قائلا - ماذا؟ لنفرض أني قذفت بك أنت فوق الحائط، أيعجبك ذلك؟ وصاح الصبي - أيها الشيطان.

ثم أمسك بالهر وعدا به. وتبعه بعض الرجال. وظل نوتش وحيدا بين البقية الباقية من السجناء وهم ينظرون إليه شزرا. فصرخ فيهم مستغيثا لست أنا وحدي أيها الرفاق.

فقاطعه ذو الشعر الأحمر وهو يلتفت يمنة ويسرة - صه، لست أنت. إذا من؟

فصاح المهرج قائلا - ولكنكم مشتركون جميعكم في المسألة.

فقال الرجل - أيها الكلب. ثم لكمه على وجهه. فتراجع نوتش إلى الخلف ليتلقى ضربة أخرى في عنقه. وجعل يصيح

o p e l k a n d l . c o m

فيهم متوسلا (أيها الرفاق. .) ولكنهم التفوا حوله بعد أن تأكدوا من بعد الحراس عنهم وأسقطوه على الأرض يشبعونه ضربا. كان كل من يراهم مجتمعين يعتقد أنهم مشتركون في حديث ودي، ورقد نوتش تحت أقدامهم، وكنت تسمع من وقت لآخر صوتا مكتوما كانوا يركلونه فيضلوعه، يركلونه في تؤدة وهدوء، وينتظرون حتى يظهر منه وهو يتلوى على الحشائش كأفعى فرجة تسمح لهم بركلة مرة أخرى. واستمر ذلك ثلاث دقائق صاح بعدها أحد الحراس فجأة: لا تبتعدوا كثيرا أيها الشياطين!

ولم ينفض السجناء في الحال، بل تركوا نوتش يركله الواحد تلو الآخر، وظل نوتش راقدا بعد أن رحلوا منبطحا على الأرض وكتفاه يهتزان، كان يبكي في حرقة، وظل يسعل ويبصق، ثم حاول أن ينهض في حذر كأنما يخشى السقوط وقد أرتكن على ذراعه اليسرى، ولكنه نبح كالكلب المريض، ثم تخاذلت ساقاه، وأخيرا تهالك على الأرض. وصاح ذو الشعر الأحمر مهددا: إياك أن تتظاهر!

فتحامل نوتش على نفسه وقام على قدميه، ثم سار يترنح في خطوات ثقيلة، وأخيرا أرتكن على الحائط، وقد انحنى

ظهره ورأسه، وكان يسعل باستمرار، فشاهدت قطرات قاتمة تتساقط من فمه على الأرض وتتناثر على الحائط. وحاول نوتش جاهدا أن يمنع قطرات الدم من أن تلوث الحائط، فجعل يمسحها بطريقة مضحكة. وإذا بالابتسامة تعود فتشرق على وجوه من يراقبونه وإذا بالضحكات تعود فترن في أنحاء الفناء.

ولم أر الهر بعد ذلك... وأصبح نوتش محط أنظار رفاقه دون أن يكون له مزاحم آخر!

openelkandl.com

obeikandl.com